نريد نقداً عقائدياً !.

بقلم : رشيف خوري

شفعت وجود الادب، منذ ان وجد، تلك الحاسة التي نسميها الذوق الادبي والتي توجه الادباء في صنع ما يصنعون من آثار، ثم توجههم في تقويم تلك الآثار أجيدة هي ام رديئة، ناجحة ام مخفقة ؟

وبكلمة اخرى، منذ ان وجد الادب وجد النقد، ولم يستغن اديب عن ان يكون شيئاً من ناقد. يصدق هذا على تاريخ الادب العربي كما يصدق على تاريخ الآداب كلها، ولا عبرة بأن يكون النقد في مبدأ امره غير واضح المعالم او مركز الاصول.

ولسنا هنا بسبيل التاريخ لفن النقد في الادب العربي .. ولكننا نلحظ ان هذا الفن – وسواء اتجلى في احكام مقتضبة كان يرسلها رواة الادب وعلماؤه في صدر الاسلام أم تمثل في كتب مجملة او مفصلة، نظرية او تطبيقية، طوال عصور بني العباس من : كتاب البيان والتبيين للجاحظ والرسالة العذراء لابن المدبر والبديع لابن المعتز والاغاني للاصفهاني والوساطة بين المتنبي وخصومه بين الطائيين للآمدي والعمدة لابن رشيق والصناعتين للعسكري والمثل الثائر لابن الاثير، اجل نلحظ ان هذا الفن قد طغى عليه في ادبنا القديم جانب الاستاطيق او علم الجمال ولا سيما في العبارة. فكان نقادنا القدامى ينظرون الى الاثر الادبي في الاعم الاغلب من حيث هو مبنى، فيلتمسون وجه الجمال في لفظة معبرة وقعت موقعها او في تركيب بليغ او قافية محكمة الترکيز او التفاتة بارعة او تشبيه او مجاز مبتكر. واذا اعاروا جانب المعنى اهتمامهم فينقدوه من حيث هو موافق لمقتضى الحال. يقرأون شعر شاعر في المدح مثلاً، فيحكمون على معانيه من حيث قصد بها الى المدح والاطراء لا من حيث هي صدق وصواب وحق بالقياس الى الموضوع. فاذا قال البحتري في المتوكل :

يجدون رؤيتك التي فازوا بها — من انعم الله التي لا تكفر
ذكروا بطلعتك النبي فهللوا — لما طلعت من الصفوف وكبروا
حتى انتهيت الى المصلى لابساً — نور الهدى يبدو عليك ويظهر!

حكموا على هذه المعاني بانها جميلة لانها مناسبة في المدح. فاما نقد هذه المعاني من حيث تصدق على المتوكل، ومن حيث يصح وجه التشبيه فيها بين المتوكل والنبي او لا يصح، فلم يكن ذلك من عمل نقادنا القدامى الا في الندرة. ولست اعرف واحداً شذ منهم الا عبد القاهر الجرجاني في نقده بيت المتنبي الشهير :

لا يسلم الشرف الرفيع من الاذى — حتى يراق على جوانبه الدم !

قال عبد القاهر : « معنى معقول، لم يزل العقلاء يقضون بصحته ويرى العارفون الاخذ بسنته ... اذ كان موضوع الجبلة على ان لا تخلو الدنيا من الطغاة المارين والغواة المعاندين الذين .. لا يتصورون الرشد فيكفيهم النصح ويمنعهم بل كانوا كالبهائم والسباع لا يوجعهم الا ما يخرق الابشار من حد الحديد وسطو البأس الشديد، فلو لم تطبع لامثالهم السيوف ولم تطلق منهم الحتوف، لما استقام دين ولا دنيا ولا نال اهل الشرف ما نالوا من الرتب العليا. »

فعبد القاهر هنا لا يتناول بيت المتنبي من حيث هو الفاظ اجيد انتقاؤها او صياغة احكم بناؤها وحسن وقع جرسها، كلا ولا يلم بالمعنى من حيث موافقته لمناسبة قيل فيها من مدح او هجو او وصف، وانما ينقله من حيث هو فكرة قضت بصوابها وصحتها احوال بشرية اجتماعية متينة. فهو ناقد في ضوء الواقع الاجتماعي.

على ان عبد القاهر قد شق بذلك نغمة جديدة في فن النقد الادبي القديم.

واقبل القرن التاسع عشر، واشرف موكب الزمن على القرن العشرين، فخطا فن النقد في الادب العربي خطوات اخرى مع اعلام احتكوا بالآداب الغربية وفن النقد فيها، فكان روحي الخالدي وكتابه « علم الادب عند الافرنج والعرب، وفكتور هيغو »، وكان سليمان البستاني ومقدمته لترجمة الياذة هوميروس شعراً. فشهد فن النقد ابواباً مستحدثة كالادب المقارن (وهو يعني بمقابلة آداب الامم بعضها الى بعض ويستند الى ان آداب الامم في مراحل متشابهة من تاريخها تبدي ملامح متشابهة وخصائص متقاربة) ودراسة البيئة التي ينتج فيها الادباء آثارهم الادبية، وتحليل شخصيات الادباء ونفسياتهم، وتحقيق صحة نسبة الآثار الادبية الى اصحابها .. الى غير ذلك من الابواب المستحدثة في نقدنا الادبي مما نجده مثلاً في كتب اعلام النقد، كالدكتور طه حسين والعقاد وشفيق جبري وبطرس البستاني ومارون عبود وعبدالله العلايلي وسواهم.

سلط نقادنا المعاصرون على درس الادب اضواء من الاستاطيق واستعانوا على ذلك بالقدامى العرب والمحدثين الغربيين، وتوسعوا فاستناروا في درس الادب بالتاريخ واصول التحقيق التاريخي وعلم النفس فكان من نتيجة ذلك ان استطاعوا تفسير الظاهرات الادبية تفسيراً يختلف حظه من عمق ولكنه على كل حال تفسير، وغاية امره انه تفسير.

ونسوا شيئاً خطيراً وهو ان الادب لا يدرس لمجرد انه منفعل وفاعل في بيئة قديمة، وانما يدرس كذلك لانه ما زال ساري الفعل في بيئتنا القائمة. وفعله الساري لا يتمثل في محض الناحية العبارية منه، وانما يتمثل كذلك في المضمون

الفكري الذي يؤديه . وهنا لا بد من التنبيه على حقيقة هي من الاهمية في الدرجة القصوى. فما من ادب الا وهو مشتمل على مضمون فكري ، على فلسفة في الحياة او موقف من الوجود واحياناً المصير الانساني .وكل نقد ادبي يبقى ناقصاً مالم يعن بالكشف عن ثلاث نواح خطيرة :

أولا : ماهيّة المضمون الفكري الذي يشتمل عليه الادب ، او ماهية الفلسفة التي يصدر عنها الاديب في الحياة والموقف الذي يتخذه من الوجود والمصير الانساني .

ثانياً : بأي احوال تاريخية ونظام اجتماعي اتصل هذا المضمون الفكري ، وعن ذهنية اي طبقة تعبر هذه الفلسفة في الحياة او النظرة الى الوجود .

ثالثاً : ما الذي نستطيع نحن في واقعنا ومنشودنا ان نستصفي من هذا الادب ليكون لنا غذاء روح وتوجيهاً في الفكر والعمل .

وبكلمة اخرى ، كل نقد ادبي يبقى ناقصاً اذا اقتصر ، عدا استاطيق العبارة ، على التاريخ والتحقيق التاريخي ، والتحليل النفسي . فهذا كله يفسر الادب . هذا كله يمثل الادب اثراً ولا يمثله مؤثراً، ويصوره فعلًا ولا يصوره فاعلًا، ولذلك وجب نقد المضمون الفكري الذي يشتمل عليه الادب نقداً فلسفياً عقائدياً ، لا على ضوء البيئة التي اكتنفت نشأته فقط بل على ضوء البيئة الحاضرة في واقعها ومنشودها كما قلنا .

ونحن لو ترونا في الامر قليلًا ، لعجبنا كم نستقي ، ولاسيما في طور النشأة ، من افكار الادباء شعراء وكتاباً ، وكم نستبقي من هذه الافكار آثاراً في ما نأتي من اعمال وننظر من نظرات . فالادب قوة فاعلة في الاخلاق ولاسيما اخلاق الناشئة والعود رخص ، وفي النفس قبول للانطباع الهين السريع .

وكقوة فاعلة في التوجيه.ينبغي اذاً للادب ان يُدرس ويُنقد ، ليصبح النقد الادبي بدوره قوة فاعلة . ولا يكون هذا الا اذا ادركنا ان اسمى درجات النقد الادبي انما هي نقد الفلسفة العقائدية التي يحملها هذا الادب ويبثها في الناس .

أي شيء هي هذه الحياة ؟ وما عسى ان يكون هذا الوجود ؟ وما دور الانسان وما مصيره ؟ وما دور عروبتنا نحن في هذا العالم العاصف ؟ وما امانيها وكيف تحقيقها ؟ وكيف القضاء على الاستعمار بكل صوره ؟ وبعد اثمة حقيقة ام لا حقيقة ؟ وكيف نعرف ؟ اثمة جمال وغبطة ام لا جمال ولا غبطة ؟ اثمة حرية ام لا حرية ؟ وما علاقة الحرية بالتبعة والمسؤولية ؟ ... الى آخر هذه الاسئلة التي لا بد لكل ادب من ان يمسها مباشرة او مداورة ، والتي تعظم قيمة الادب او تضؤل بمقدار ما يوجه الى التغلب عليها .

ولنأخذ لنا مثلًا ...

هذا ابو العلاء المعري من اعلام ادبائنا المفكرين. اكثر فيه نقادنا المعاصرون البحث ، فسموه فيلسوف الشعراء وشاعر الفلاسفة . ولمسوا فيه تشاؤماً وشكاً وحيرة واضطراباً ، والتمسوا لهذا كله تفسيراً . فوصفوا عصره ، وقدروا ما ينبغي لعصره ان يكون قد ترك من اثر في توجيهه عقلًا ومزاجاً ، وعددوا المصائب الشخصية التي حلت به ، وما يحتمل ان تكون قد احدثت فيه من طباع . وتوسعوا ففصلوا آراءه تفصيلًا . ذكروا اعتقاده بان الجبلة البشرية فاسدة بالضرورة ، وان البشر مسيرون مكرهون بالاقدار ، وان خيراً للبشران لا يتزوجوا ولا يتناسلوا، وان امر الآخرة مشكوك فيه فقد تكون آخرة او قد يكون الانسان الذي هو تراب يعود الى تراب ثم لا شيء من بعد. وذكروا انه سخر في رسالة الغفران مثلًا بصورة الجنة والحياة في الجنة كما يفهمها العوام ، وانه رسم مثالاً اعلى للسلوك البشري ان يصنع الانسان الخير لانه خير لا رغبة في ثواب أو رهبة من عقاب . وذكروا انه اوجب على الانسان الاخذ باحكام العقل لأنه « لا امام سوى العقل » ولأنه « خير شر ضمه النادي » ، وانه دعا الى رحمة الحيوان وعدم اكله او اكل نتيجه الذي اراده لصغاره ، وانه لسع بسياط نقده الدجالين باسم الدين والحكام الظالمين.. الى آخر ما

— التتمة على الصفحة ٧٤ —

انتظروا قريباً

الفنـــــون

•

عدد ممتاز من «الآداب»

يضمّ دراســـات مستفيضة عن الرسم والنحت والموسيقى والتمثيل والسينما في البلاد العربيـــة والغرب .

٥٥٥

نريد نقداً عقائدياً !

– تتمة المنشور على الصفحة ٣ –

ذكروه من معتقدات هذا العبقري الفذ .

ولكن نقادنا المعاصرين لم يفطنوا الى ان درس ابي العلاء ليس مجرد عرض لافكاره ولا محض تفسير لشكه وتشاؤمه او حيرته واضطرابه او نقمته على المظالم والاكاذيب . فنحن لا ندرس ابا العلاء على اعتباره وثيقة تاريخية لا غير ، ولا ندرسه بوصفه شاعر افكار ، تترك اثرها فينا نحن اليوم . فوجب اذاً ان ننقد هذه الافكار : ان نزنها بميزان يعين قيمتها على ضوء واقعنا ومنشودنا كأمة طامحة الى العافية والحياة الحرة المستقلة .

وهكذا نحتاج الى تبين الوجه الايجابي من الوجه السلبي في الفكر العلائي ؛ وسنرى – مع الاسف – ان السلبي يرجح الايجابي ، فاذا صح – كما يقول ابو العلاء – ان البشر فاسدو الجبلة ، لا ارادة لهم في هذا الفساد الكياني الاصيل :

وما فسدت اخلاقنا باختيارنا ولكن لأمر سببته المقادر

فما معنى دعوتهم ان يفعلوا الخير ؟ اليست هذه الدعوة عقيمة ، شأن صاحبها ، كمن يطالب النار ان لا تحرق والوحش ان لا يفترس ! واذا صح – كما يقول ابو العلاء – ان الثواب على عمل الخير والعقاب على عمل الشر امر غير يقين ، افلا يضعف ذلك من الدعوة الى فعل الخير اضعافاً لا تبقى معه لهذه الدعوة قوة حفز او اقناع ؟

ان مثل ابي العلاء مثل من رأى بناء يحتاج الى اصلاح فاعمل فيه معوله هدماً ، ولكنه فيما يهدم عصف بالصالح والفاسد من البناء معاً . وهدمه للفاسد هوما نؤانس في مذهبه من وجه ايجابي كتسفيهه للحكام الظالمين ولمن يستثمرون الدين وكأصراره على حق العقل ونفي التقاليد والخرافات . وعلى هذا الوجه الايجابي في الفكر العلائي يجب التأكيد عند درسه ، لانه يدخل في عدة امة تتحرر . فاما الوجه السلبي فيجب نقده واظهار عقمه وانه ابعد شيء عن ان يكون غذاء صالحاً لشعب يتوثب .

وبعد ، فارجو ان اكون قد وفقت الى تبيان ما قصدت اليه بهذا النقد العقائدي الذي اراه يعوزنا في حياتنا العقلية كما يعوزنا الضياء والهواء في حياتنا البدنية .

رئيف خوري

لجنة التأليف المدرسي

بيروت

•

تقدم الى المدارس المجددة اصلح الكتب وادقها انطباقاً على نظريات التربية الحديثة . صدر عنها :

المروج : سلسلة كتب حديثة في القراءة

الجزء الاول ١٠٠ ق.ل — الجزء الرابع ١٧٥ ق.ل
« الثاني ١٤٥ « — « الخامس ١٩٠ «
« الثالث ١٧٠ « — « السادس ٢٢٠ «

يلحق بهذه السلسلة كتاب « المروج الملونة » وقد اعد خصيصاً لحدائق الاطفال وثمنه ٥٥ قرشاً .

الجديد في دروس الاشياء : سلسلة كتب حديثة في العلوم

الجزء الاول ٨٠ — الجزء الثالث ٢١٠
« الثاني ١٢٠ — « الرابع ٣٠٠

كيف اكتب : سلسلة حديثة في الانشاء العربي

الجزء الاول ٩٠ — الجزء الثالث ١٣٥
« الثاني ١١٥ — « الرابع ٢٠٠

الجديد في دروس الحساب : سلسلة كتب حديثة في الرياضيات

الجزء الاول ١٢٥ — الجزء الرابع ٢٧٥
« الثاني ١٧٥ — « الخامس ٣٥٠
« الثالث ٢٢٠

الجديد في قواعد اللغة العربية : سلسلة كتب حديثة في القواعد

الجزء الاول ٩٥ — الجزء الثالث ٢٠٠
« الثاني ١٢٠ — « الرابع ٢٥٠

التعريف في الادب العربي
للاستاذ رئيف خوري

الجزء الاول ٤٠٠
الجزء الثاني ٦٥٠

تطلب هذه الكتب من مكتبة انطوان ودار بيروت ودار العلم للملايين ودار المكشوف ومكتبة لبنان ومن سائر المكتبات في لبنان .